

- ١٨٠ -

قد تناول في مقالاته هذه بعض ذوى المناصب العليا في مجتمعه ، ولم يخش يسهم ، ولا سطوتهم ، طالما ان فيهم هذه الزاوية التى تستأهل ، تماما كما تناول غيرهم ممن كان يحفل بهم المجتمع البصرى ، والمجتمع البغدادى على عهده ٠٠ وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فقد قدم فى كتابه « البخلاء » عدة صور لرجال نفهم منه أنهم كانوا فى مرتبة الوزراء ، لكن شحهم كان الزاوية التى نفذ منها الى تناولهم ، وبالمثل رسم لنا صورة رائعة لقضاى البصرة - وكان الناس يرتعدون منه خوفا - فكان كسله هو الجانب الذى رآه جديرا يتناوله ، كما كانت أعمال والاعيب وأكاذيب بعض القصاص هى المنفذ اليهم ٠٠ ولا ننسى أن رسالته الرائحة فى « التزييع والتدوير » قصد بها اضحاك الناس من « احمد بن عبد الوهاب » وهو كاتب الديوان فى عهده ، أى بمنزلة « وزير الثقافة » أو « الاعلام » أو هما معا ٠٠ الآن ، وربما اقترب من منزلة رئيس الوزراء ، أى كان على رأس الجهاز الادارى التنفيذى بالدولة ، فى عهد الخليفة العباسى الواثق ، وصحيح أنها لم تكن السخرية فقط ، وانما للرسالة جوانبها الأخرى ذات الفوائد الأدبية والعلمية ، التى جاءت ضمن سطورها ، ولكن ما كان الرجل ليكتبها الا لأنه وجد فى هيئته ، ورأى فى تصرفاته ما يستأهل هذا التناول الفكاهى ٠٠ بعد أن يمر خلال البوتقة الجاحظية طبعا ، أو « يصهره » كاريكاتوريا ٠٠

ومن الغريب هنا ، أن الجاحظ قد تهكم حتى على نفسه أيضا ، وأكثر من مرة بسبب نتوء سواد عينيه ، وعندما كان يقوم ببعض الأعمال متسرعا أو مضطرا ، وتكون نتيجةها من النوع السلبي ، أو عند تعرضه لما يستأهل ذلك ٠٠

٥ - براعة الوصف : فانت تقرا هذه المقالات ، أو حتى أجزاء منها ، فيدهشك حقا ، أن يكون الرجل - والموضوع فكاهى - على هذه الدرجة الكبيرة من براعة الوصف ، خاصة وهو يركز على هذه الناحية بالذات ، أو هذا الجانب البارز من الصورة ، أو هيئة الرجل ، أو صفاته ، ليتخذ منها مدخله الى الاضحاك والتهكم والسخرية ، ثم تأخذ بك تلك التشبيهات الكثيرة والدقيقة معا ، التى تصاحب هذا التناول ٠٠ مما أسعفته فيه موهبته العجيبة ، ومقدرته الغريبة ، على تقديم هذه الأوصاف كلها ٠٠

٦ - ثراء المضمون وتنوعه : والى جانب ذلك كله ، وعلى الرغم من ان